الدِّينُ الذِي ارْتَضَاهُ اللهُ

أَهُوَ الإِسْلاَمُ أمِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ



***   ***

PART-25

مقارنة بين مفهوم التوحيد ومفهوم وحدة الوجود

في صدد التفريق بين الإسلام والْمُسْلُمَانِيَّةِ

A comparison between “tawhid” and the concept of “Waḥdat al-Wujūd (unity of existence)

تأليف

فريد صلاح الهاشمي

feriduddin@gmail.com

إسطنبول-2018م.



دار العِبَر للطباعة والنشر

al_ibar.publishing@yahoo.com

مقارنة بين مفهوم التوحيد ومفهوم وحدة الوجود.

إنَّ "التوحيد" مصطلحٌ قرآنيٌّ، إسلاميٌّ، أما مقولة "وحدة الوجود" فإنها مصطلحٌ فلسفيٌّ أُضْفِيَتْ عليه مَسحةٌ من الفكر الصوفي، ثمَّ تحوَّل هذا المفهوم مع الزمان إلى عقيدة في أوساطِ الصوفية الأتراك بخاصَّةٍ وهو حبكة المقال هنا. وهذه مقارنة وجيزة وشافية بين المفهومين (التوحيد، ووحدة الوجود):

أمَّا التوحيد، فإنه باختصار: هو أن يؤمن الإنسانُ بأنَّ للكون خالقٌ واحدٌ متفردٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الله سبحانه لا شريكَ له في مُلكه وتدبيره، وأنّه وحدَه المستحقّ للعبادة فلا تُصرَف لغيره؛ أزليٌّ لا بدايةَ لوجودِهِ، فلم يُسبَقْ بعدم، أبديٌّ لا نهايةَ له، ليس محدودًا بزمان ولا مكان، بل الزمان والمكان من خَلقه وتدبيره، حيٌّ لا يموت، "ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّوم"[1] مُنَزَّهٌ عن كلِّ نقيصةٍ "لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوم"[2] عليم خبير بكل شيءٍ، يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ.[3] "وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ."[4] عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَال."[5] "وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِين."[6] لا مثيل ولا شبيه له، "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ."[7]

---

[1] البقرة: 255

[2] البقرة: 255

[3] غافر: 19

[4] يونس: 61

[5] الرعد: 9

[6] الأنعام: 59

[7] الشورى: 11

الإيمان (في نطاق هذه المعالم) يسمى عقيدة التوحيد في الدين الإسلامي الحنيف، وهو محور الدِّين وما يشتمل عليه من أمرٍ ونهيٍ وتشريع. وعلى هذا الأساس فقد خلق الله تعالى كل شيءٍ خاضعًا لأمره، وهذا الخضوع هو عبادةُ الأشياء لخالقها، فكل شيءٍ يعبد خالقه شاءَ أم أبى؛ لكنه تعالى قد دعى ذَوِي العقولِ من خلقه ليعبدوه باختيارهم عن وعيٍ، كما قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ."[8] "فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ."[9] وأرغمَ غيرَ ذوي العقولِ والجمادَ على عبادته، كما قال تعالى: "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ."[10]

لقد أرسل الله رُسُلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ؛ أوّلُهم آدمُ، وآخرُهم محمدٌ عليهم الصلاة والسلام–، ليدعوا الناسَ إلى التوحيد، أي إلى الإيمان بوحدانية الله سبحانه، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ."[11]، والتَّوحيد يتحقق بتصديق كل ما جاء من عند الله وما بلَّغه الرسولُ عن رَبِّهِ جُمْلَةً وتفصيلاً، وبإتيان الشهادتين نطقًا. هذا هو الأساس الذي بُنِيَ عليه الإسلام كما جاء به الكتاب والسنة.

والتَّوحيد بتعريف آخر: هو نَفْيُ وجودِ أيّ إلهٍ مع الله، ونَفْيُ الشَّبه بين الله وبين خَلْقِهِ، فالله سبحانه واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، لا شريكَ، ولا مثيلَ، ولا وكيلَ، ولا نِدَّ له... هو منفردٌ في التصرّف في مُلكه، "لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ."[12]، لا يخرج عن مشيئته وإرادته شيء، بل هو الفعّال لما يريد، لا رادّ لأمره، ما شاءه كان حتمًا، وما لم يشأه لم يكن أبدًا. "وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ."[13]

أمّا وحدة الوجود: فإنها باختصار: نظريةٌ أو فلسفةٌ تفيد إلغاء الفرق بين الخالق والمخلوق في ظاهر المعنى؛ إلاَّ أنَّ بعضَ المحلّلين قد قسموها إلى شطرين متباينين: "وحدةِ وجودٍ إلحاديةٍ" و"وحدةِ وجودِ

---

[8] الذاريات: 56

[9] الأنعام: 48، 49

[10] الرعد: 15

[11] الأنبياء:25

[12] الأنبياء: 23

[13] التكوير. 29

إيمانيةٍ". فالإلحاديةُ منهما توفيقيةٌ ومُنْبَثَقَةٌ من الفلسفة الهندية والإغريقية والأفلاطونية المحدثة، يُعَبَّرُ عنها عند الباحثين الغربيين بمصطلح pantheism "معتنقوها يعتقدون أنَّ العالمَ وحده هو الموجود الحق، وليس الإله سوى مجموع الأشياء الموجودة في العالم"؛ أمَّا الإيمانيةُ منهما، فإنها مُنْبَثَقَةٌ من الكتاب والسنة، "معتنقوها يرون أنَّ الإلهَ وحده هو الحقيقي، وما العالم إلا مجموعةٌ من تجلّياتِهِ التي ليس لها وجود من دونه."[14] إلاَّ أنَّ أقوال الوجوديّين (الإيمانيّين) المنتسبين إلى الإسلامِ تدل على أنهم لا يختلفون عن (الإلحاديّين) في معتقداتهم المتعلقة بذات الله، كما يبرهن على ذلك وصفُ ابنِ عربي لذات الله فيما يقول: "فَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ وَهُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ فِي حَالِ ظُهُورِهِ."[15] وبهذا الإعتقاد يرون جميع الإشياءِ من حيّ وميت، وصغير وكبير، وغائبٍ ومشهود، وطاهر ونجس، يرون كلَّها مُندمجًا في كائن واحدٍ بما في ذلك الرجيع والجيف والكلب والخنزير، كما قال بعضهم:

وما الكلب والخنزير إلاَّ إلهنا * وما الله إلاّ راهبٌ في كنيسةٍ.[16]

وقال آخر:

محبوبي قد عمَّ الوجود * وقد ظهر في بيض وسود
وفي النصارى مع اليهود * وفي الخنازير مع القرود.[17]

أو ربما يريون الذاتَ الإلهيةَ موزعةً على الكائنات فيكون كل شيءٍ جزءًا منها، بحيث يكون الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا على حد اعتقادهم، لذا، يرون العبادةَ بدعةً فيحتقرون مَنْ يتعبَّد، لكنهم يحتاطون في ذلك فلا يُشعِرون أحدًا بنواياهم، كما يُعرَفُ عنهم من التلوُّنِ والتحفُّظِ وكتمان السر على

---

[14] هذا بحسب ما اقتبسه الباحث الأخضر قويدري عطاء الله، من المصادر التالية:

* M.M. Berthelot, La Grande Encyclopédie, Société anonyme de la Grande Encyclopédie, Paris, 1968, tome 25, p. 957.

* جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب العربي اللبناني، بيروت: 1982، ص:569، مجلد:2

* عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ص:624، مجلد:2

[15] محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية، ص: 76–77، دار الكتاب العربي، بيروت 1947م.

[16] يُعزى هذا البيت إلى فريد الدين العطار (1146–1221م.) راجع المصادر الآتية: عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في الكتاب والسنة الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية– الكويت ص.153؛ محمد بهاء الدين البيطار، النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية، PDF ص: 338.

[17] ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص:55.

مثال الرافضة، فيقومون بأداء الفرائض عند الناسِ ويتظاهرون بالزهد والورع والمواظبة على النوافل تقيّةً، مخافة أن يُتَّهَموا بالفسق والضلال إذا كُشِفت سرائرُهم..

أما العبادةُ – في مفهومهم – فإنها تفيد الإثنينيةَ، أي هناك عابد ومعبودٌ، وهذا مضادٌّ للتوحيد فلا يصح عندهم، لأنَّ التعدُّدَ في معتقدهم بهذا المعنى، يفيد الإشراكَ ونفيَ مُطلقِ الواحد، وذلك ينقض عقيدة "وحدة الوجود." هذا هو التوحيد عند الوجوديّين (الإيمانيّينَ!). لذلك قالوا: "لو أنصف الناسُ ما رأوا عبدًا ولا معبودًا."[18] ولهذا يطعنون في النصارى بأنهم قصّروا الإلوهيةَ على عيسى ابن مريم، كما يطعنون في المشركين بأنهم قصّروا الإلوهيةَ على الأصنام فحسب، وقال قائلهم في ذلك:

عقد الخلائقُ في الإله عقائدَ * وأنا اعتقدتُ جميع ما اعتقدوه.

إنّ فكرة "وحدة الوجود" قد طُرحتْ منذ قرون حول العلاقة بين ذات الله وبين الكائنات من خلقه، ودامت ولا تزال المناقشات متواصلةً حول هذه الفلسفة إلى يومنا. واختلف حتى الوجوديون في تفسيرها؛ فريق منهم أصرُّوا على القول بـ"وحدة الوجود" وهم أتباع محي الدين بن عربي[19]، وصدر

---

[18] راجع: تقي الدين ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، باب إبطال وحدة الوجود والرد على القائلين بها: 65/1.

[19] هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، معروفٌ بـ محيي الدين بن عربي (1165–1240م.). مشتهر بين أتباعه بلقب «الشيخ الأكبر». كان فيلسوفًا، أديبًا، شاعرًا، وروحانيًا، ذاع صيته لكثرة مؤلفاته، وبراعة أسلوبه، وسعة معارفه... عظّمته جماهير من الناسِ، كما استنكره كثيرٌ من العلماءِ لأفكاره الجريئة، وألقوا عليه اللائمةَ وطعنوا فيه واتهموه بالزندقة والإلحاد. يُنسبُ إليه القول بـ"وحدة الوجود".

الدين القونوي[20]، وابن الفارض[21]، وابن سبعين[22]، وعفيف التلمساني[23]، وعبد الكريم الجيلي[24] وعبد الغني النابلسي[25] الذين تأثروا بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة وفلسفة الرواقيين.

قديمًا كان ولا تزال تجري مناقشاتٌ ولَغَطٌ حول فلسفة "وحدة الوجود"؛ فريق يحاول تأصيلَها بنسبتها إلى الإسلام بطريق التأويل الصوفي، اعتمادًا على أقوال الفلاسفة المذكورين آنفًا وعلى أقوال غيرهم من مشاهير الصوفية الأوائل، مثل إبراهيم بن أدهم (718–777م.)، وشقيق البلخي (ت. 810م.)، ومعروف الكرخي (750–816م.)، وسري السقطي (772–865م.)، وأبي يزيد البسطامي (804–874م.)، والجنيد البغدادي (830–910م.)... على أنَّ ابنَ عربي تأتي مقولاتُهُ بخاصّةٍ على رأس الحجج التي تستدلُّ بها جبهة المدافعين لعقيدة "وحدة الوجود". أكثر هذه الجماعةِ عاطفيون وغير ذوي الكفائة، يتضح ذلك من تأويلاتهم العفوية، وتعليقاتهم الجوفاء، ومدافعاتهم الواهية

---

[20] صدر الدين القونوي (1209–1274م.) فيلسوف فارسي الأصل على الأرجح، هو ربيب محي الدين بن عربي وتلميذه، ولد في مدينة ملطية، ثم انتقل ألى قونيا وأقام فيها إلى أن توفي بها، قام بشرح العديد من كتب محيي الدين بن عرب وعلَّق عليها، وأغلب مؤلفاته لا تزال مخطوطة، ترك العديد من الكتب والمصنفات، يأتي على رأسها: "النفحات"، "تحفة الشكور"، "تجليات"، "تفسير الفاتحة"، "تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهي"، "التوجه الأتم الأعلى نحو الحق جل وعلا"، "جامع الأصول"، "الرسالة المرشدية"، "الرسالة الهادية"، "شرح أسماء الله الحسنى"، "فكوك النصوص في مستندات حكم الفصوص للشيخ الأكبر"، "اللمعة النورانية في مشكلات الشجرة النعمانية"، "كشف السر"، "كشف أستار جواهر الحكم المستخرجة الموروثة من جوامع الكلم في شرح الأربعين"، "المفاوضات"، "مفتاح أقفال القلوب لمفاتيح الغيوب"، "مفتاح الغيب"، "موارد ذوي الاختصاص إلى مقاصد سورة الإخلاص"، "النصوص في تحقيق الطور المخصوص"، "نفثة المصدور وتحفة المشكور"، "النفحات الإلهية".

[21] هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي (1181–1235م.). أشهر الشعراء المتصوفين، وكانت أشعاره غالبها في العشق الإلهي. قصيدته (التائية) موضوع نقد لاذع ونكير شديد، رماه عدد من العلماءِ بالإلحاد والحلول يأتي على رأسهم الذهبي وابن تيمية.

[22] هو عبد الحق الفيلسوف الأندلسي (1217–1271م.) ورد في لسان الميزان لابن حجر، يقول: "وكانت له بلاغة وبراعة وتفنن في العلوم وكثر اتباعه وله مقالة في تصوف الاتحادي. ذكر ابن دقيق العيد انه جلس معه عن ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاما يُعقل مفرداتُهُ ولا يُعقل مركباتُهُ، كذا حكاه الذهبي * وقرأتُ أنا بخط شيخ شيوخنا ابن سيد الناس انه سمع ولد الشيخ عبد الرحيم القناري يقول إنه رأى ابن سبعين بمكة فذكر نحو ما حكى عن ابن دقيق العبد واشتهر عنه مقالة ردية وهي قوله: لقد كذب ابن أبي كبشة على نفسه حيث قال لا نبي بعدي."

[23] هو عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (1213– 1291م.)، شاعر صوفي، اتبع طريق محي الدين بن عربي، حيث كان يعتقد بوحدة الوجود، فاتُّهم هو الآخر بالزندقة والإلحاد. يقول الدكتور بو مدين كروم في مقال له بعنوان "عفيف الدين التلمساني في آثار الدرسين": "مال إلى التصوف علما وذوقًا، فرحل في طلب رجاله؛ فالتقى صدر الدين القونوي، فتتلمذ له، وأخذ عنه الطريقة المولوية، وأغلب الظن أن القونوي قد أثَّرَ فيه تأثيرًا قويًّا..."

[24] عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم (1365–1424م.) صوفي وجودي من أتباع مدرسة ابن عربي. رحل إلى بلاد فارس. أتقن هناك اللغة الفارسيّة، ثمّ رحل إلى الهند، فتعلّم اللغة السنسكريتية، واهتم بعقائد الهنود والتقى برهبانهم وتعرّف على أسرار تعبّدهم، ثمّ انتقل إلى الجزيرة العربية، فدامت أسفاره إلى أن حطّ ترحاله في مدينة زبيد من المنطقة اليمنية. وهناك التقى بشيخ الصوفيّة، شرف الدين بن إسماعيل الجبرتي، ثم سافر إلى مكّة المكرّمة، هناك اجتمع برؤوس الصوفية. ثم سافر إلى إلى القاهرة، فألّف هناك كتابه «غنية أرباب السماع». ثم عاد إلى مدينة زبيد من جديدي فألّف هناك كتابه " الإنسان الكامل" وفيها توفّي.

[25] عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي (1641–1731م.) شاعر وأديب ورحالة له مؤلفات عدّة. توغل في مسائل التصوف، سافر إلى إسطنبول وبيروت والقدس وفلسطين ومصر والجزيرة العربية، ثم استقر في مدينته دمشق وتوفي فيها.

واعتراضاتهم على العلماءِ دونما اعتمادٍ على براهين علمية... فضلاً عن أن المتأخرين والكُتَّاب المعاصرين بخاصةٍ لم يفهموا حقيقةَ مقاصد القوم، ولم ينجحوا في فك ألألغاز المكنونة في مصطلحاتهم

على سبيل المثال يقول أحدهم: "(وحدة الوجود) مصطلح تكثر الإشارة إليه عند الحديث عن الصوفية، وخصوصا عند الحديث عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رحمه الله ورضي عنه وكتابه المشهور الفتوحات المكية... وعلى هذا فإني أستعين بالله على تبسيط هذا المفهوم وتوضيحه وتمييزه في هذا الموضوع...

أولا: مصطلح "وحدة الوجود" يستخدم للتعبير عن مفهومين مختلفين تماما في نفس الوقت، وهذا ما يخلق الإشكال حوله... المفهوم الأول: وهو مفهوم الديانات الوثنية وفلاسفة الوجود، والذي هو غير مرتبط بالإسلام أو التصوف، على الإطلاق... المفهوم هذا ببساطة يقول: أن الوجود بما يحويه من كائنات وأشكال مختلفة هو الله نفسه بذاته، أو تقول أن ذات الله هي الوجود الفعلي بأشكاله المادية من كائنات حية وجمادات وغيرها، فعلى هذا؛ الوجود كله هو شيء واحد فقط متحد ببعضه، ألا وهو الله، ولذلك سمي بوحدة الوجود. تعالى الله عن هذا علوا كبيرا..."[26]

وردت هذه العباراتُ على لسان شخصٍ تحت عنوان: "تبسيط مفهوم وحدة الوجود للمبتدئين"، وفيها استخفاف بأهل العلم مما يدل على بساطة كاتبها وجرأته، كما أنَّ عباراتِهِ خاليةٌ من مَسحةِ الأدب والفصاحة، يتصور هذا الكاتب ومن على شاكلته؛ أنَّ مفهوم "وحدة الوجود" في "الديانات الوثنية" تختلف عن مفهومه "المرتبط بالإسلام أو التصوف". هذه العبارات المتناقضة تشير (أولاً) إلى جهله أو تجاهله: أنَّ مفهوم "وحدة الوجود" لا علاقة له بالاسلام ولا بالتصوفِ أصلاً، لأنَّ "وحدةَ الوجودِ"، والتصوفَ، والاسلامَ، مفاهيم ثلاثة مختلفةٌ، مستقلّةٌ عن بعضها البعض، لا صلة لأحدها بالآخر، كما تشير عباراته (ثانيًا) إلى أنه لا يعتمد على أي دليل علميٍّ في دفاعه.. وهذا هو موقف جماهير المنبهرين بابن عربي وأمثاله من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام.

ورد بقلم الأستاذ الدكتور حامد طاهر في معرض الدفاع عن ابن عربي يقول: "وابن عربى يميز دائماً وبصورة حاسمة بين وجود الله الخالق، ووجود الكائنات المخلوقة، والمفتقرة إليه تعالى فى وجودها، فهو

---

[26] راجع الشبكة العنكبوتية، موقع: تبسيط مفهوم وحدة الوجود للمبتدئين ؟ – شبكة الدفاع عن السنة(dd-sunnah.net)

الذى أفاض عليها هذا الوجود، ومازال يحفظه عليها من خلال خلقه المتجدد لها، وتجلياته بأسمائه الحسنى على كل مظاهرها وأشكالها"[27]

ويتصدّى أيضًا أحد الباحثين المعاصرين للدفاع عن ابن عربي، يُدعى الأخضر قويدري عطاء الله الذي له با ع طويل في البحوث الروحية، يقول: "لقد وقع الالتباس عند كثير من العلماء والباحثين في فهم نظرية وحدة الوجود كما وردت عند الشيخ محي الدين بن عربي، فراحوا يخلطون بينها وبين الحلول والاتحاد. والحقيقة أنَّ ابنَ عربي كان من أبعد الناس عن الحلول والاتحاد، يشهد بذلك ما جاء صريحًا في كتبه. فهو ينفي الاتحاد بقوله:

"إذا كان الاتحاد يُصيِّر الذاتين ذاتًا واحدة فهو محال، لأنه إن كان عين كلِّ واحد منهما موجودًا في حال الاتحاد فهما ذاتان، وإن عدمت العينُ الواحدة وبقيت الأخرى فليس للأول حد."[28]

يواصل الأخضر قويدري دفاعه عن ابن عربي في موضع من مقاله فيقول: "وأغلب الظن أن الذين يتهمون ابن عربي بالحلول والاتحاد ما قرأوا كتبه قراءةً معمقةً وشمولية. إذ أن كلَّ قراءة تجزيئية أو سطحية لكتبه، على ما فيها من غموض وتعقيد، ستكون دون شك مغامرة عقيمة مآلها سوء الفهم والتخبط في المجهول"[29]

على رغم هذا الدفاع الذي ينمُّ عن الإنصاف والاعتدال، لا يُستبعَدُ أن يكون ابن عربي قد قطع على نفسه أن يستعمل لباقتَهُ باستعراضِ ما رُزِقَ من سحر البيان وغزارة المعرفة والثقافة ليُعجز أهل العلم ويتركَهم في مأزق، ويفتح بينهم باب الخلاف والنزاع فيُشغل العقول حول مقولاته التي تتداخل عبرها الحقُّ والباطلُ، والنورُ والظلامُ، والجمالُ والقبحُ، والصواب والخطأُ... وقد ورد الإخبارُ عن هذا النسيج المتلبد في إقرار عدد من الباحثين الذين نذروا حياتهم في دراسة كتبه كأبي العلاء العفيفي الذي يقول: "فكثيرًا ما زلَّتْ أقدام الباحثين في أساليب القوم فصرفوها إلى غير معانيها، أو حمَّلوها ما لا

---

27 أ. د. حامد طاهر، الموقع الألكتروني الخاص بالمؤلف. الأفكار الرئيسية في التصوف الإسلامي | طواسين للتصوف والاسلاميات(tawaseen.com)

28 مقتَبَس من مقال للكاتب الأخضر قويدري عطاء الله، نشر على موقع ألكتروني وهذا رابطه: maaber.50megs.com/issue_june07/spiritual_traditions1.htm#:~:text=3%Aتُعتبَر نظريةُ وحدة الوجود من,جوهرية5%آتمنB1%5D.

29 المصدر السابق.

تحتمل، أو أخذوا بظاهرها حيث لا يراد ذلك الظاهر. وهذه مسألة تنبه إليها القدماء وحذروا من الوقوع فيها، بل نصحوا الناس– طلباً للسلامة، وصوناً للصوفية من أن يتجنى عليهم من ليس منهم، أن يكُفُّوا عن قراءة كتبهم أو يخوضوا في أقوالهم. وقد تردد هذا النصح بوجه خاص في النهي عن مطالعة كتب ابن عربي لما اشتهر به غموض أساليبه واستغلاق معانيه– لا تزهيداً للناس في قراءتها، أو إنكارًا عليه فيما كتبه، وإن حدث ذلك أحيانًا، بل حرصًا على ألّا يُساءَ فهمُ مقصودِه، وحماية لعقيدة القارئين من أن تتسرَّبَ إليها شكوكهم في غنى عنها، بسبب قراءتهم لكلام رجل لا يفهمون أغراضه"[30]

هذا، ومن ذا الذي يستطيع أن يبرهن على أن ابن عربي كان مؤمنًا بوحدانية الله مخلصًا في إيمانه، – إذ لا يعلم ما يجول في أعماق الصدور إلا الله– أو كان الرجل سليم النفس غير معتل بمرض من الأمراض الروحية؟! ألا يجوز أن يكون ابن عربي قد تبنى هذا الأسلوب الغامض المتحجر المتمنّعَ على العقول، ليُغرِقَ مَنْ يقرأ كتبه في مستنقعٍ من الحيرة حتى يعلن عجزه عن كنه مقاصده فيعظِّمَهُ فيتحوَّلَ إلى آلةٍ لإذاعة شهرته. يؤكد على هذا الواقع أن ملايين من الناسِ نذرو حياتهم منذ قرون في بث دعوته دون أن يفهموا حقيقة مآربه.

لقد دافع عن ابن عربي كثير ممن عُرِفوا بسمة العلم، ونالوا توقيرًا من الناسِ، بينما أثبت جمعٌ من العلماءِ الراسخين والباحثين الأكفَّاء –في ضوء أدلة قاطعة بحسب الأصولية–: أنَّ ابنَ عربي وأمثالَهُ الوجوديّين كانوا على هذا الاعتقاد. يعنون بذلك أنه كان أفلاطوني المذهب، مما يدل هذا الإختلاف على أنَّ "وحدةِ الوجودِ" موضوعُ تأويلٍ يفرّقها إلى اسلاميَّةٍ وأخرى أفلاطونيَّةٍ (عند عامةِ الموالين إلى مدرسة ابن عربي.) أما معارضوه من الفقهاء الأصوليّين وعلى رأسهم ابنُ تيميةُ الحرّانيُّ، وعلي بن سلطان الهروي القاري، فإنهم يعدّون فكرة "وحدة الوجود" زندقةً وكفرًا وخروجًا على الإسلام بالحرف الواحد. يستدلون بذلك على كثير من أقوال ابن عربي منها قوله: «قَالَ الْخَرَّازُ: وَهُوَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الْحَقِّ وَلِسَانٌ مِنْ أَلْسِنَتِهِ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّ اللَّهَ لاَ يُعْرَفُ إلاَّ بِجَمْعِهِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَا. فَهُوَ الأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنَ. فَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ وَهُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ فِي حَالِ ظُهُورِهِ؛ وَمَا ثَمَّ مَنْ يَرَاهُ غَيْرُهُ؛ وَمَا ثَمَّ مَنْ يَبْطُنُ عَنْهُ سِوَاهُ، فَهُوَ ظَاهِرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ بَاطِنٌ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الْمُسَمَّى أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاءِ الْمُحْدَثَاتِ.»."[31]

---

[30] أبو العلاء العفيفي، فصوص الحكم وابن عربب، مجلد: ص:15،

[31] محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية، ص: 76–77، دار الكتاب العربي، بيروت 1947م.

لقد انتهج ابن عربي أسلوبًا راقيًا خاصًّا في صياغة مقاصده كما يتضح ذلك فيما سبق من عباراته، بل من عموم مؤلَّفاته، وهذا يبرهن على أنه كان فيلسوفًا عملاقًا، ذا فطنةٍ وموهبةٍ، قمةً في الإختيارات اللفظية واستعراض الفصاحة والبلاغة، يُربِك العقولَ بأدبياته الْمُتَمَنِّعَة، فيجعل القارءَ المثقَّفَ، بل العالمَ المتخصِّصَ، تعيا مذاهبُهُ فيتذبذب بين الحق والباطل، وكان ابن عربي عبقريًّا، لبيبًا، أديبًا، ضليعًا في فنون الكلام، حاذقًا في التمويه باستعمال الحيلة اللغوية، نفذ إلى قرارة نفوس كثيرٍ من العلماءِ والمثقفين بأسلوبه الرفيع الخلابِ، فاستولى على ضمائرهم، والقى هيبته في قلوبهم، بحيث لم يسعهم أن يعارضوه، فاستسلموا لآرائه وأفكاره، وأيقنوا أنه لا قِبَلَ لهم به، لعجزهم عن تفنيد دعواه، بل عن فهم مآربه، فأصبح في نظرهم هو "الشيخَ الأكبرَ" الذي لا أحد يبلغ شأوه!..

كانت "نظرياتُهُ صعبةَ الفهمِ، وأصعب من ذلك شرحُها وتفسيرُها، لأن لغتَهُ اصطلاحيةٌ خاصةٌ، مجازيةٌ معقدةٌ في معظم الأحيان. وأي تفسير حرفي لها يفسد معناها..."[32] لذلك لم ينجح أحدٌ في تحليل عباراته واستنتاجها بالوجه الأمثل، بقدر ما نجح في هذه المهمة الباحثُ المصريُّ أبو العلاء العفيفي؛[33] لأنه كان هو الآخر ذا نصيب وافر من الثقافة، مشتهرًا ببحوثه ودراساته في الفلسفة والتصوف، متميزًا ببلاغة راقية... انكبّ على مصنفات ابن عربي وبذل جهودًا جبارةً في تحليل ألفاظه، وتفصيل مقاصده، وفك معضلات عباراته، ونقد آرائه.

ترك ابن عربي تأثيرًا عميقًا في نفوسِ كثيرٍ من العلماءِ والمثقفين وفرض نَفْسَهُ عليهم حتى سحر عقولَهم، وأخذ بألبابهم، فانبهروا به ودُهشوا من براعة أدائه، وفصاحة كلماته، وسلاسة عباراته، وجزالة تعبيراته، وغزارة علمه ومعارفه، فاضطروا أنْ يتقبَّلوا أفكارَهُ، ويستحسنوا تأويلاته ويعتذروا لشطحياته... طاشت عقولهم حيال مقولاتِهِ اللَّغزيةِ ذاتِ الوجوهِ المتعدِّدةِ، وربما أخذهم الخوفُ أن يرموه بالزندقة حتى لو وجدوا في ثنايا عباراته أشكالاً من الكفر الصريح الذي لا سبيل لتأويله.[34]

---

[32] من تعليقات أبي العلاء العفيفي على فصوص الحكم؛ راجع فصوص الحكم ص:12، دار الكتاب العربي، بيروت 1947م.

[33] كان أبو العلاءِ العفيفي المصري (1897 –1966م.) باحثًا ضليعًا وأديبًا ومؤرّخًا بارعًا في أسلوبه الأدبي بقدر ما كان ذا اطلاع واسع في مسائل التصوف والحياة الروحية وسير المتصوفين وأفكارفم، تناول فلسفة ابن عربي فتوغل في تحليليها إلى حدود لم يصل إليها غيره من الباحثين.

[34] يقول أحد المنبهرين به في مقال له تحت عنوان: "عظمة محي الدين بن عربي"، يقول: " وفي بعض الأحيان، وبسبب استغلاق عباراته، وطلبها الغوص عميقا وراء مخبوآتها، لأن استراتيجية الرمز والإشارة والتلميح هي سيدة ما أسميه "إمبراطورية الكتابة الأكبرية"، كنت، حينها أترك ما بيدي من تآليفه وألتجئ لكتابات أخرى أجعلها "وسيطا" بيني وبين الشيخ لعل إحداها تفتح لي كوة من المعرفة في جدار هذا العالم الغامض والشاسع. فقرأت لفقهاء وصوفية ومستشرقين وعقلانيين حداثيين، وكلهم يعبرون . كلٌّ بطريقته وحسب خلفيته . عن وقوفهم مندهشين أمام قامة شامخة، وبعضهم . وخاصة الفقهاء . يعبر عن ذلك من حيث لا يشعر."

لكن جماعةً من العلماءِ والفقهاء الأصوليين على وجه الخصوص، استطاعوا أن يقفوا على كنه مقاصده، فتصدّوا لأفكاره وحاولوا تفنيده، كلٌّ على قدر مستواه من المقدرة الجدالية، والمعرفة بمصطلحات الفلسفة وفنون حيل التأويل. وقد أسرف بعضُ معارضيه في الطعن فيه، وإلقاء اللائمة عليه، فخرج عن الإعتدالِ إلى حدود التشنيع والسب، على سبيل المثال، يقول عبد الرحمن عبد الخالق: "ابن عربي جمع كل عقائد المشركين والوثنيين واليهود والنصارى والزنادقة، واستطاع هذا الخبيث أن يجمع هذا كله ويلبسه لباس الإسلام في ثعلبية ماكرة يعجز عنها شياطين الإنس والجن!"[35] ليس خافيًا على أهل العلم والمعرفة أن هذه اللهجة القاسية مخالفة لآداب العلماءِ ومبادئهم في الخصومات الفكرية ونقد الآراء، وقد قيل: "إنَّ العلمَ معرفة الخلاف."

وجملة القول؛ لو كان ابن عربي موحدًا مخلصًا في توحيده، مراعيًا لحدود نصوص الكتاب والسنة وهو من أعلم الناس بها، لما خلط بين الدّين والفلسفة والتصوفِ، وهي مجالات بعيدة بعضها عن بعضٍ، والغريب أنَّ المدافعين عنه يكاد جميعهم قد غفلوا عن التفريق بين هذه المفاهيم الثلاثة مع أن الموضوعية والمنهجية تقتضيان هذا التفريق حتمًا. وهذه الغفلة ناشئة إمّا من جهل مطبق، أو تقليد محضٍ، أو انبهار شديد، أو تماه مذهل... حالت بينهم وبين مبدأ التوقيفية الذي هي سدٌّ رادع في الإسلام يمنع الإنزلاق حيال أي إثارة للعاطفة؛ "وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ..."[36]

أما فكرة "وحدة الشهود" فهي وجه أخر ملفّق لفكرة "وحدة الوجود"، يقول الكاتب نهاد خياطة في مقال له بعنوان "مدخل نظري إلى التصوف الإسلامي" وهو يعرّف هذا المصطلح بقوله: "إذا قال الصوفي: "لا أرى شيئًا غير الله"، فهو في حال وحدة شهود. وإذا قال: "لا أرى شيئًا إلا وأرى الله فيه"، فهو في حال وحدة وجود. ولعل هذا أوجز تبسيط ممكن لهذين الاصطلاحين اللذين يختزلان

راجع الرابط: عظَمة محيي الدين بن العربي(hespress.com) ½

[35] تم النشر في 01/06/2006 جريدة القبس العدد14499؛ الرابط الألكتروني: ابن عربي بين مؤيد و معارض(rabitat-alwaha.net)

[36] الحشر:7

التجربة الصوفية في أبعادها كلِّها. فحالُ وحدة الشهود هي حال الفناء؛ وحال وحدة الوجود هي حال البقاء. والفناء والبقاء متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر"[37]

إنّ الربط بين هذه المصطلحات الغريبة وبين الإسلام هي أصلاً محاولةٌ يائسة لم تجد سبيلاً إلى النجاح منذ قرون حتى اليوم، إذ لا يكاد اليوم يوجد أحد يعتنق الاسلام مهما كان مذهبه أنه يفكر في وحدة الوجود، ووحدة الشهودِ، والفناء، والبقاء، والحلول، والإتحاد، والإشراقِ وغيرها من المقولا الفلسفية أثناء صلاته وصومه وحجه وتصدّقه ومناسكه وسائر أحواله في تعبده. كما لا تُطرحُ هذه المصطلحات للمناقشة والمذاكرة إلا في الندوات العلمية والأكاديمية داخل الجامعات حصرًا، وذلك شبه فكاهة ثقافية لا يسمن ولا يغنى من جوع، فضلا عن أنَّ الانشغال بهذه الفكريات الغامضة قد عرقل المسلمين عن مواكبة التطورات الحضارية وأسفر عن تخلفهم وتحزبهم وتدهور أحوالهم حتى أصبحوا اليوم يتناحرون، يذبح بعضهم بعضًا.

***

بعد هذا التلخيص الذي استنتجته من منطلق بعض البحوث التي ألمَّ بها عدد من مثقّفي العرب[38] حول نظرية وحدة الوجود، يناسب هنا أن أتطرق إلى مدى اهتمام الصوفية الأتراك بهذه الفكرة وأسباب اهتمامهم بها.

إن عامة الرعاع من الصوفية – وهم حثالة المجتمع في تركيا– لا علم لهم في الواقع بشيءٍ عن مقولة "وحدة الوجود" ولا عن غيرها من مصطلحات الصوفية آنفة الذكر، وإنما شيوخ الطريقة النقشبندية وعدد من النخبة المثقفين من أتباعهم فحسبُ، هم الذين يتناقلونها في بعض جلساتهم الخاصة، غير أنهم يمتنعون عن الكلام فيها عند الناسِ إذ يعدُّونهم من الأجانب فلا يثقون بهم، كما يحتاطون عند منتسبيهم ومريديهم من الطبقة العامّية مخافة أنْ يُثيرَهم سؤءُ الفهمِ فيخوضوا في تساؤلاتٍ ومناقشاتٍ،

---

[37] راجع الرابط: www.maaber.org/issue_january05/spiritual_traditions1.htm

[38] يأتي على رأسهم، أبو العلاء العفيغي، ومحمد أحمد العباد، وحسن حنفي، وآية سالم إبراهيم، وعبد الرحمن عبد الخالق، وبهجت الرشيد، ونهاد خياطة، وحمزة رستناوي، وتميم بن عبد العزيز القاضي، وطه عبد الباقي سرور، والأخضر قويدري عطاء الله، وعبد الحي كريط، ومحمد عبد القادر الفار، وعبد القادر أحمد عطا، وعلي حسن عبد القادر، وتوفيق السعد، وعبد الهادي المهادي، ومحمود عبد الرؤوف القاسم، وعماد عشماوي، وعبد الوهاب المسيري، وهاشم الحداد، وحامد طاهر، وحسام أبو حامد، ومصطفى مجاهدي، وجمال مرشد عبود، وعبد الله عوض العجمي، وعبد الصمد السويلم...

ويَشُكُّوا في شيوخهم الذين هم أولياء الله وخاصته في نظر ملايين من المريدين فيعتزلوهم، فيعود ذلك على الشيوخ بخسارةٍ في المصالح وضياعٍ للشهرةِ والمكانة.

إنما اهتمَّ شيوخ النقشبندية بمقولة "وحدة الوجود" لأنها عقيدةٌ ورِثوها عن أسلافهم واعتنقوها تقليدًا وليس عن وعيٍ ورويةٍ، لأنهم بمعزلٍ عن فهم حقيقتها، فلا يكاد أحد منهم يُتقن العربية، فكيف بهم أن يقرؤوا كتب القومِ التي كُتِبَتْ جميعُها باللغة العربية! وكيف بهم أن يفهموا عبارات ابن العربي الذي كان قمةً في البلاغةِ؟ وهذا بالإضافة إلى جمودهم وانتفاءِ معرفتهم بعقيدة التوحيد الخالص الذي بيّنها الكتابُ والسنةُ، إذ لو كانوا على علمٍ بحقيقة التوحيد لما ظلّوا معتنقين للديانة الْمُسْلُمَانِيَّةِ (Müslümanlik) تقليدًا بالآباءِ،

يبرهن على هذا الواقع أنَّ جماعةً من أعوان شيخٍ من مشاهير شيوخ النقشبندية في تركيا، يُدعى محمود أُسطى عثمان أوغلو، قاموا متعاونين فيما بينهم بتأليف كتابٍ في تفسير القرآن الكريم، سموها "روح الفرقان"، كتبوه باللغة التركية وبالحروف اللاتينية، وقد يدافعون أنهم إنما كتبوه باللغة المحلية ليفهمه الناسُ، وهذه حجة معقولةٌ، لكنهم في الحقيقة قد أخفوا بذلك جهلهم باللغة العربية، لأن حظهم من العربية لا يتجاوز حدودَ حفظ قواعد الصرف والنحو فحسب، أما الكتابة العلمية والنطق بالعربية فلا نصيب لهم منهما.

ومن أسباب اهتما شيوخ النقشبندية بعقيدة "وحدة الوجود"، أنَّ أحدَ قدمائهم كان قد اعتنقها أيام شبابه ثم تغير موقفه منها كما ورد عنه في أحد مكاتيبه، وهو أحمد الفاروقي السرهندي الذي يعظمه النقشبنديّون أيما تعظيم ويُطلقون عليه عنوان "الإمام الرباني". وردت عنه عبارات ملفقة بالفارسية، قد نقلها أحد المتفانين فيه إلى العربية، وهذا نصه:

"إن معتقد الفقير – يقصد نفسه – من الصِغر كان مشرب أهل التوحيد الوجودي يعني توحيد الوجود وكان والد الفقير قدس سره في ذلك المشرب بحسب الظاهر، وكان مشغولاً بهذا الطريق على سبيل الدوام مع وجود حصول التوجه التام بحسب الباطن إلى مرتبة اللاكيفية، وبحكم ابن الفقيه نصف الفقيه، كان للفقير أيضاً حظ وافر من هذا المشرب بحسب العلم، وحصلت لي منه لذة عظيمة إلى أن أوصلني الله بمحض كرمه إلى جناب حضرة معدن الإرشاد مظهر الحقائق والمعارف مؤيد الدين الرضي شيخنا ومولانا وقبلتنا محمد الباقي قدسنا الله بسره، فَعَلَّم الفقيرَ الطريقة النقشبندية، وبذلَ

التوجهَ البليغ في حق هذا المسكين فانكشف التوحيد الوجودي في مدة يسيرة بعد ممارسة هذه الطريقة العليه... ولاحت دقائق علوم الشيخ محي الدين بن عربي ومعارفه، وشُرفتُ بالتجلي الذاتي الذي بينه صاحب الفصوص، وأعتقدُ أنه نهاية العروج، وقال في حقه: وما بعد هذا إلا العدم المحض."[39]

وقيل أن السرهندي تراجع فيما بعد عن القول "بوحدة الوجود"، يقول أبو الحسن الندوي عنه: "ليست مأثرة الإمام التجديدية في إثباته بالدليل والبرهان أن نظرية وحدة الوجود التي كان لها القبول العام، وكانت كالعملة السائدة، لا تجدر بأن تكون مقياسا صحيحا وغاية أخيرة في طريق السلوك والمعرفة، بل إن ميزته وعبقريته في هذا الباب أنه تناول هذه النظرية بالنقد في ضوء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية... وقد أصاب المؤلف الغربي : بيتر هاردي (peter hardy) رغم أنه ليس حجة في هذا الباب: إن سر النجاح العظيم الذي أحرزه الشيخ السرهندي يكم في أنه خلَّصَ الإسلامَ الهنديَّ عن طريق التصوف من التطرف الصوفي، ولعلَّ السببَ وراء ذلك أن النظرية التي رد عليها وعارضها كان على إدراكٍ شخصِيّ عميقٍ لمعانيها ومقاصدها، وأهميتها وخطورتها"[40]

إلاَّ أنّ النقشبنديّين ظلّوا متشيثين بهذه العقيدة لأنهم ما زالو معجبين بابن عربي بالقدر الذي يعتزّون بالسرهندِيّ، ولكنّهم حائرون في التمييز بين موقفهما من عقيدة "وحدة الوجود"، لأنهم يجهلون المقارنة بين السرهندي ومحي الدين ابن عربي، ولأنهم يعجزون عن درك الهوّة السحيقة بين المستوَى العلمِيّ لكلٍّ منهما. والْمُلْفت، أنَّ هؤلاء هم في الواقع حفنة من رجال الدين (النقشبنديين–الحنفانيّين) يريدون إثارة التنافس بين الْمُسلْمَانِيَّةِ التركيةِ وبين الإسلام (في تركيا) بهذه الذريعة، ولا يفطنون إلى الجهل المتفشي في المجتمع التركي، حيث يستحيل على أفراده أن يفهموا أدنى شيءٍ من دقائق هذه الفلسفةِ وما قد جرت حولها من نقاشٍ ونزاعٍ وعراكٍ على امتداد ثمانية قرون.

هناك أسباب مثيرة للاهتمام تجعل هذه المجموعة الصغيرة تركّزُ على شخصية محي الدين بن عربي وأحمد السرهندي وعلى مسألتي "وحدة الوجود" و"وحدة الشهود" في الحين الذي لا علم لأكثرية المجتمع التركي عن هذين الشيخصيتين وعن المسائل الفلسفية. وهذه نبذة من تلك الأسباب:

---

[39] أحمد الفاروقي السرهندي، المكتوبات، ص: 41، المكتوب الحادي والثلاثين. دار الكتب العلمية. تعريب: محمد مراد المنزلوي. وردت هذه الصيغة في نسخة ألكترونية بصيغة PDF، ص:69. مكتبة الحقيقة إسطنبول–2002م.

[40] أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام مجلد:3 ص: 293–295 دار ابن كثير –2007م.

1) أكسب السرهنديُّ الحيويةَ للمُسْلُمَانِيَّةِ التركية التي قفزتْ من تركستان إلى الهند تحت ستار النقشبندية، وهما (أي المُسْلُمَانِيَّةُ و النقشبندية) رمزان من أهم الرموز التي تمثل كرامة الأمة التركية وتُمَيِّزُهَا عن العرب في التديُّن والعباردة.

2) لم يوجِّهْ السرهنديُّ أيَّ تحذيرٍ للطاغية المغولي أكبر شاه (ملك الدولة التيمورية) الذي شن حربا شعواءَ على الدين الإسلامي في المنطقة الهندية. والسر في ذلك أن النقشبنديين الأتراك يعدون سلالة الملوك التيمورية جزءًا من العرق التركي.

3) أعلن السرهنديُّ الحرب على الشيعة وقدَّمَ بذلك خدمةً كبيرةً لإضفاء الطابع المؤسسي على التدين الأيديولوجي التركي بكونه حامل راية "السنة!" لهذا السبب يعظم النقشبنديون شأن السرهنديّ ويتدارسون مكاتيبه في مجالسهم ومنتدياتهم لتأبيد ذكراه. أمّا المذهب السُنِّيُّ الذي يعتنقه الأتراك، فهو أصلاً تسميةٌ أخرى للديانة الْمُسْلُمانِيَّةِ، والأنسب أن يسمى بـ"السُّنِّيَةِ التركية" لأن عقيدة هذه الجماعة تخالف عقيدة أهل السنة والجماعةِ، وأفراها يعتنقون الديانةَ الْمُسْلُمانِيَّةَ ويسمونها **Müslümanlik** في لغتهم.

لقد تناول بعضُ الأكاديميّين الأتراك آراءَ السرهنديّ في انتقادهِ فلسفةَ ابنِ عربي حولَ مسألةِ "وحدة الوجود"، إلاّ أنهم قد لغطوا في الحديث عن مخالفة السرهنديّ لابن عربي. فهناك أيضًا أسباب مثيرة لاهتمامهم بهذين الشخصيتين، إذ يبدو أنَّ هؤلاءِ الأكاديميين قد حاولوا إيجاد مكانٍ لأنفسهم بين السرهنديّ وبين ابن عربي "كرجال البحث والدراسة" طمعًا في الشهرةِ وليربطوا بينهما وبين الأمة التركية بِصلةٍ موهومةٍ، رغم أنَّ أحدهما هندِيٌّ والآخر عربِيٌّ – إلاَّ أنَّ كلاً منهما قد أصبح في نظرهم رمزًا مهمًّا للْمُسْلُمانِيَّةِ التركِيَّةِ، مع ذلك فإنَّ السرهندِيَّ المتَّسم بخمولِهِ وعُجمتِهِ وجمودِ قريحتِهِ لم يقارب في مستواه شبرًا إلى جانب ابنِ عربي المشتهر ببلاغته ومعارفه الغزيرة، لأن ابنَ عربي، معَ ما تعرَّضَ لانتقاد جماعةٍ من العلماءِ فأنهم قد أخذوه على محمل الجد ودرسوا أعماله وقيَّموها بدقةٍ على عكس السرهندي الذي أغفلوه وتجاهلوه ولم يعتدّوا به.

يمكننا أن نعزو الأهمية التي يوليها الأتراك لابن عربي بشكل خاص إلى الأسباب التالية:

1) ثارت عاطفة ابن عربي نحو الأتراك وانشغل بهم لسبب لا نعلمه، وراسل الحاكم السلجوقِيَّ عز الدين كيكافوس (**1180–1220**م) من الأندلس البعيدة عن منطقة آسيا الصغرى (الموطن الجديد للأتراك)، قصد مدينة قونيا (عاصمة الدولة السلجوقية يومئذ) فوصل إلى حرَّان عام **1205**م. ومنها إلى قونية بعد وقت قصير. ثم سافر إلى مكة ومكث هناك لفترة، ثم عاد إلى قونية عبر بغداد وحلب في سنة **1215**م.

2) ترك ابن عربي أثرًا عميقًا على الشيخ صدر الدين القونوي (**1207–1274**م.) الذي تتلمذ عليه وأصبح فيلسوفًا على مثال أستاذه، واشتهر بين علماء الأتراك.. كان ابن عربي قد تزوّج من أمه الأرملة، فتصاهر مع الأتراك بهذا الزواج، فازداد اهتمامهم به على عكس موقفهم من بقية علماء العرب.

3) في الأيام التي تدهورت الأوضاع في الدولة السلجوقية، وتعرض الشعب لنكبات شديدةٍ، وأوشك أن يسحقهم المغول، وجد ابن عربي قبولاً واسعًا واحترامًا بالغًا لدى نبلاء القوم على وجه الخصوص، فاستقبله النخبةُ بحفاوة، وتفائلوا بحلوله كمصدرٍ مواساةٍ أهبَّ عليهم نفحات الأنسِ بخطاباته الروحية التي امتاز فيها بحضور البديهة، وفلسفته العالية، وأدبه الرائع، ونبوءاته... فأذهل خواجوات الأتراك بصفته علاَّمةً أندلسيًا.

لهذا السبب؛ فإن النقشبنديين وجميعَ العنصريين، ورجالَ الدين الذين يعتقدون أنهم مكلَّفون بحماية الْمُسْلُمَانِيَّةِ (**Müslümanlik**) ضد تسرّب الإسلام الحنيف إلى المجتمع التركي، كلهم مشغولون اليومَ بحملةٍ دعائيَّةٍ مكثَّفَةٍ لاستقطاب الرأي العام المحلي على شخصية محي الدين ابن عربي.[41] لكن تاريخ المستقبل سوف يكشف لا محالة أسرارَ هذه الحملة الدعائية لتأليه الرجل في ضمير الشعب التركي، كما كشف أسرارَ الزوبعة التي أثارتها التجمعات المتطرفة تحت ستار الدفاع عن حق ارتداء الحجاب

---

41 ظهر محي الدين بن عربي في (مسلسل أرطغرل) الذي أُنتج في تركيا تحت أشراف المخرج محمد بوزداغ، وتم بث أول حلقة منه في **10** ديسمبر **2014**م. هذا المسلسل (اليوم **27** أغسطس **2018**م) لا يزال مستمرًا، وفقًا للبرنامج الزمني للدولة العميقة بقيادة التحالف القائم بين النقشبنديين والقطاع العنصري. تزامن هذا الترتيب في إطار توقيت مناسب بعد أن تخلّت تركيا عن دورها في "مشروع الشرق الاوسط الكبير"، وتحويل وجهها نحو الشرق بعد **100** عام. تشهد تركيا اليوم حركة استعداد غامض ترافقها مسلسلات دعائيةٌ تبث العنصرية وكراهية الأجنبي. تريد "الدولة التركية المقدسة" اليوم بطريقتها الخاصة أن تعطي صورة مشرقة لـ"عالِمٍ عربيٍّ كبيرٍ صديقٍ لتركيا" من أجل ترميم الجدران التي شُيِّدَتْ وقتها ضد الإسلام، حفاظًا على المُسْلُمَانِيَّةِ التركيَّةِ وتأبيدها إلى يوم القيامة. ولكن هل يمكن تحقيق هذا الهدف بفن تشويه الحقائق التاريخية؟ تُرى كم نفخةً من أنفاسٍ مُرهَقَةٍ عسى أن تتمكّن من ضخ الروح في هذا الدين الميت الذي ما أنزل الله به من سلطان، وكم قطرة من الماء الذي حمله محي الدين بن عربي المتنبي في غرباله الفلسفي ما عسى أن تبعث الحياةَ في هذا الدين الميت وتقود هذا الشعب المرتبك في معتقداته إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى؟!

عبر مظاهرت صاخبة في الماضي القريب، بعد أن افتضحت الصوفيات الْمُحَجَّبَات بما استعرضن من أشكال الوقاحة وقلة الحياء والاجتراء على ارتكاب الرذائل. نعم سوف تنكشف الحُجُبُ عن خفايا "الحبِّ المحي الدِّينِيِّ" إن شاء الله تعالى، حتى لو لم تكن آجالنا كافية للعلم بأخبارها.

أما عن جهود أتْباع ابن عربي (من الأتراك) في محاولتهم التوفيق بين فلسفة "وحدة الوجود" ومبدأ التوحيد في الإسلام، فمن الواضح أنها لم تتجاوز حدود تأويلات مزخرفة لا مكان لها في الكتاب والسنة، بل إنها خلط وهذيانات صدرت على ألسنة شرذمةٍ من الأعجام الذين وصفوها بـ"الحكمة" كما تبدو عبر أسلوبهم المتكلَّف. هذه الشرذمة ينبعي هنا بالمناسبة أن نتعرفَ على شخصياتهم بإيجاز، ونقفَ برهةً على اهتمامهم بفلسفة "وحدة الوجود" وشخصية محي الدين بن عربي، لأنه يحتمل مع أغلب الظنّ أن يكون قد كَمِنَتْ وراء وعيهم مشاعر أيديولوجية معقدة.. في واقع الأمر؛ من ذا الذي يعتز بالقومية التركية ولا يُصَفِّقُ لهذا "القدّيس العظيم" الذي تنبأ تقريبًا عن جميع الأحداث المهمة التي جرت عبر أيام الإمبراطورية العثمانية (على حدّ اعتقادهم)، مع العلم أنَّ هذه الدولةَ قد ظهرت على مسرح التاريخ بعد خمسين عامًا من وفات ابن عربي وظلت لمدة 627 عامًا! هذا الإدعاء قد استيقن بها جماهير الْمُسْلُمانِيّين من الصوفية وأغلب المتديّنين والمحافظين.

بهذه المناسبة ينبغي أن نتباحث عن مغامرة خواجوات الأتراك أنهم بأيّ دافع تأثّروا بفكرة "وحدة الوجود"، فسيقودنا هذا التباحث إلى أنهم وجدوا صلةً بينها وبين "الأوليائيةِ" التي هي من امتداد معتقدات أسلافهم لمرحلة قبل الإسلام، كما ينبغي أن نُلفتَ الإنتباهَ إلى أهمية هذا المعتقَدِ في بناء الْمُسْلُمانيَّةِ التُّركِيَّةِ. ولا شك أنَّ أكبر خطأ ارتكبه هؤلاء الخواجوات باعتناقهم "وحدة الوجود" إذ تورطوا في متاهاتٍ عبر تحليلاتهم لهذه العقيدة بمراوغات أدبية فضفاضة، هو إغفالهم الرابط الضروري بين كونه تعالى (واجب الوجود) وبين أحَدِيَّتِهِ وانفراده بالألوهية والربوبية وما يختص به من أسماءٍ وصفات، ويسمى ذلك بـ"العلاقة الإلزامية"

إنَّ أيًّا من مثقفي الأتراك المفتتنين بفلسفة "وحدة الوجود" كطاهر البورسوي (1861–1925م.)، وأحمد نعيم بابانذاده (1872–1934م)، وإسماعيل فنّي أرطُغرُلْ (1855–1946م.)، وعمر فريد كام (1864–1944م.)، ومحمد إحسان أوغوز (1887–1991م.)، وأحمد عوني كونوك (1873–1938م.)... أيًّا منهم أو أيَّ أحدٍ من أتباعهم لم يتمكن من فهم هذه النكتة إطلاقًا. لأن هؤلاء الشخصيات كانوا قد انبهروا بابن عربي لدرجة أنهم كادوا يؤمنون بعصمته عن الخطأ، بحيث لم

يفكر أحدهم فيما لو كان ابن عربي قد أخطأ في موضع مّا من كلامه ومقولاته وتأويلاته، بل لم يكلف أحد منهم نفسه ليفكّر حتى في احتمال صدور خطأ أو سهو منه. فلا ننسى أنَّ الإعجابَ المفرطَ يفسد ملكة التمييز في الانسان وقد يعطِّلُها. ثم بعد ذلك يبقى الإنسان مجرد كائنٍ مقلِّدٍ لن يعودَ قادرًا على التمييز بين الصواب والخطأ. فقد يتحول هذا الهوس في قطاعٍ كبيرٍ من الأتراك إلى سباقٍ لمكافأة بعض المشاهير من الأجانب الذين حصلوا على لقب "الأصدقاء العظماء"؛ يأتي على رأسهم من العرب، عمرو بن بحر الكناني (المعروف بالجاحظ، مؤلف الكتاب الموسوم: "فضائل الأتراك") ومحي الدين ابن عربي الذي تنبأ بقيام الدولة العثمانية قبل خمسين عامًا (على حد اعتقادهم).

ظلت هذه المجموعة غير مدركة حتى لتفسيرات الملمّين بالفسلفة (في المجتمع التركي) الذين استطاعوا أن يستنتجوا مفهوم حتمية (الأحدية) لله (وليست الواحدية) من فكرة حتمية (وجوده الأزليّ الأبديّ) تعالى، وهذا ملفت للغاية. كذلك أن هذه المجموعة لم تتمكن من إدراك "العلة الغائة" على حقيقتها (**la Cause première**)، وهذا يعني بالاستقراء أنهم قد فشلوا في إدراك مطلق (الأحد) الذي هو (متفرّد)، ومتنزه؛ عن (التعدد) وعن (التجزي) وعن (التغير)، وعن (التشابه)... كما فشلوا في التمييز بين مفهومَي (الأحد) و(الواحد)، لأن اللغة التركية لا تسع للمقارنة بينهما! فيجوز أن يكون هؤلاء قد أصيبوا بهذه الأزمة المنطقية لإعجابهم المفرط بابن عربي. ولعل ابن عربي قد تعمَّد تأويل لفظةِ (واحدٍ) في بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى "وإلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ" باعتبارها (واحدة) ذات صفات نسبية، عرضية، قابلة للقسمة والمضاعفة والتجزي (على حد قصده).. ولا يُستَبْعَدُ أن يكونَ ابن عربي قد أضفى على عباراته الغموضَ ليواري بذلك مقصوده هذا، حتى لا يفتضح! يبرهن على هذه الحقيقة ما تفوَّه به (تلميذُ تلميذِه) عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله التلمسانيُّ الذي لم يكتم ولم يُخفي شيئًا من مقاصده، وقد نقل ابن تيمية، أنه كان يقول: "القرآن كلُّهُ شركٌ، ليس فيه توحيد، وإنما التوحيد عندنا، أو في كلامنا"؛ كذلك نقله صالح المقبلي في كتابه (العَلَم الشامخ)، أن التلمسانيَّ قُرِئَ عليه كتاب الفصوصِ، وقيل له: "هذا كله يخالف القرآن"، فقال: "القرآن كلُّهُ شركٌ، وإنما التوحيد في قولنا. وقيل له: فما الفرق بين أختي وزوجتي؟ قال: لا فرق عندنا، لكن هؤلاءِ المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا حرام عليكم"[42] من الملفت أن ابن عربي لم يتكلّم قط بمثل هذه الصراحة.

---

[42] تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموع الرسائل والمسائل، ص:**51–52**/ مجلد:**1**؛ صالح المقبلي، العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشائخ، ص:**569**، النسخة الألكترونية بصيغة **PDF** ص: **475**؛ عبد القادر بن حبيب الله السندي، التصوف في ميزان البحث والتحقيق، ص:**439**.

تدعو المناسبة هنا إلى وقفة يسيرة مع قضية (كتمان السر) عند كبار شيوخ الصوفية، وهو من أهم مواقفهم تجاه غير بطانتهم. فالغموض الذي يسود على كلام صناديديهم إنما يدل على الكتومية التي يَتَّسِمُونَ بها حتى لا يقفَ غيرُ أصحابِهِم على خفايا مقاصدهم، ذلك أنَّ كلَّ مَنْ ليس من خواصِّهم، يعدُّونه أجنبيًا، لا يجاهرون عنده بشيءٍ من أسرارهم. لهذا، فإن معظم كلامهم يجري على نمط الألغاز والمعمَّيات، لا يفهمه من لا يتقن مصطلحاتهم، ومن لا يسمحون له بالحضور في خلاياهم.

لقد كان اشتهر الجنيد البغدادي بأسلوبه الغامض ومُعَمَّيَاتِهِ، وهو من أوائل هذه النحلة مشهورٌ بـ"سيد الطائفة". يشير الباحث علي حسن عبد القادر إلى أسلوبه فيقول: "وهذا ما جعل الجنيد وأغلب رفاقه لا يسجّلون أفكارَهم وآراءَهم وإبقائها من الأسرار، اكتفاءً بتبليغها للمريدين عن طريق التلقّي."[43] يقول الباحث نفسُهُ في موضع آخر من مقاله: "قيل إنه عند موته طلب من تلامذته أن يدفنوا الأوراق (يقصد رسائله). والسبب الأهم، هو أنَّ هذه الحقائق لا تسعفها الكلمات والعبارات التي يعتبرها غير كافية لتوصيل هذه الإشارات والتجارب الروحية، حتى قيل إنَّ كثيرًا من الناسِ لم يفهموها، منهم ابن عربي الذي صرح أنه لم يفهم أقواله.." [44]

ومن أكبر الدلائل على كتمان السر عند كبار الصوفية بخاصة؛ كلامٌ نَقَلَهُ أبو بكر بن محمد بن إسحاق الكلابازي في كتابه: "التعرّف لمذهب أهل التصوف" يقول نقلا عن جنيد البغدادي وهو يعاتب تلميذه أبا بكر الشبلي بقوله: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ"[45]

وجاء في كتابٍ آخر من تأليف محمود عبد الرءوف القاسم، بعنوان: "الكشف عن حقيقة الصوفيو لأول مرة" يقول فيه نقلاً عن ابن خلدون: "قُتِلَ الحلاجُ بفتوى أهل الظاهر والباطن، أهل الشريعة وأهل الحقيقة؛ لأنه باح بالسر، فوجبت عقوبته. وممن أفتى بقتله الجنيد والشلبي، غيرة على السر أن يُفْشَى لغير أهله، فالواجب كتم الأسرار، وإظهار شريعة النبي المختار"[46]

---

[43] علي حسن عبد القادر، رسائل الجنيد، ص:8، دار الكتب المصرية، القاهرة–1988م.
[44] المصدر السابق.

[45] أبو بكر بن محمد بن إسحاق الكلابازي، التعرّف لمذهب أهل التصوف، ص: 113. مكتبة الخانجي، القاهرة–بلا تاريخ.

[46] محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة، ص:72، دار الصحابة، مجهول تاريخ الطباعة ومكانها.

لقد أظهر هؤلاء المعجبون بابن عربي من مثقفي الأتراك – وقد تفانوا فيه محبةً وتعظيمًا–، قد أظهروا خاصة منذ المائةِ عامٍ الماضية، براعةً كبيرةً في التشمير عن سواعدهم لِمُوَاءَمَةِ تعبيراته الصريحة مع روح الكتاب والسنة! هؤلاء الذين يتحدَّوْنَ أهلَ العقيدة الحنيفة باستعراض بلاغتهم، هم بلا شك أبرز الأوصياءِ والحُرَّاسِ على الديانة "المُسْلُمَانِيَّةِ" التي يعتنقها الأمة التركية منذ (عشرة قرون) ضد "الإسلام العربي" (على حد اعتقادهم!)، كما لا شكَّ أنهم سيعهدون هذه "الأمانةَ المقدسةَ" إلى الأجيال القادمة من أجل استمرار "المُسْلُمَانِيَّةِ" التي هي رمز عظيم يمثل الاستقلال الديني للأمة التركية، ويحرصون على إدامتها إلى يوم القيامةِ، لأنهم يؤمنون ببقاء الدولة التركية إلى قيام الساعة بفضل دوام "المُسْلُمَانِيَّةِ"! يبدو أنَّ أخلافهم سوف يقتفون آثار الأسلاف بالتحامل على الأقلّية المؤمنة (أهل التوحيد الخالص)، فيتَّهمونهم بأنهم إرهابيون يروِّجون الشغب والفتن. إن الأجيال القادمة قد يسبقون أسلافهم في التعذيب النفسي للمؤمنين الموحّدين في تركيا بالدفاع الصارم عن طقوس "الديانة المُسْلُمَانِيَّةِ" وتعاليمها كفلسفة "وحدة الوجود"، والسلوك الصوفي، والعبادة على مثال الهنادك والشامانيّين، وإقامة حفلات المولد، وترديد الأذكار من كتاب "الجوشن"، وطلب قضاء الحاجة من الأضرحة وما إلى ذلك من أشكال الزندقة... فضلا عن ممارستهم لمناسك الإسلام من الصلاة والصوم والحج والنوافل في الوقت ذاته! ليبرهنوا بذلك أنهم هم المسلمون الحقيقيون، فيشمتوا بأهل العقيدة الحنيفة ويؤذوهم ويتسلطوا عليهم بالقهر والإذلال...

***

وجملة القوال: أنَّ الإسلامَ قد قدَّمَ نفسَهُ لعقول البشر بلغةٍ واضحةٍ غنيةٍ وأسلوبٍ متين، إلى درجة يستحيل أن تُضفَى عليه المرونةُ بتمريره عبر أنفاقِ أدبيات الفلاسفة ومراوغات الصوفية، وتوفيقه مع عقيدة وحدة الوجود وهرطقات النقشبنديّين.. قال تعالى: "وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ."[47] "هذا، وكما قد فصلت عقليةُ الخوارجِ والوهابيّين والإخوانيّين جمهورًا عن الإسلام في البلاد العربية، وكما دفع التشيعُ معظمَ الشعبِ الإيراني بعيدًا عن الإسلام، فإنَّ فلسفة التصوفِ كذلك قد فصلت جمهورًا من الناسِ عن الإسلام في المنطقة التركية، فأصبحوا ضحية الديانة الْمُسْلُمَانِيَّةِ (Müslümanlik) في نهاية المطاف.

***

[47] النحل: 64